والنجم يومئ طرفَه فنخاله أَرِقًا سجينا
والروض يُذكرنا بكم فنُجنُّ بالذكرى جنونا
والليل أسكنُ ما سرى لا نستطيب له سكونا
والكأس تظمئنا إليـ ـكم وهي تروي الشاربينا
أتُهَجِّنون[١٥] لنا المحا سن أم تَزينون الهجينا
غيرتُم الدنيا فقد أغرت بحسنُكم السنينا
تالله ما ظلمتكمُ الدْ دُنيا ولكن تظلمونا
والعدل يقبح وقعه فيكم وإن لم تنصفونا
فسلوا الوذائل[١٦] في غدٍ أين المحاسن واخْبِرونا
أين الوجوه الناضرا ت؟ وأين أين العاشقونا؟
ذهب الشباب فلا وعو د ولا صدود ولا حنينا
فإذا نسينا عهدكم بعد التصوِّح[١٧] فاذكرونا
وإذا نشدتم باكيًا يأسى عليكم فانشدونا
نبكي على الطلل الذي قد زال عنه الآهلونا
نبكي على الدوح الذي هجر الجمال له غصونا
لسنا عليكم باخلـ ـين بعبرة يا باخلينا

المعري وابنه

قال المعري:

وإذا أردتم بالبنين كرامة فالحزم أجمع تركهم في الأظهر

[١٥] تشوهون.
[١٦] الوذيلة: هي المرآة.
[١٧] الذبول.

فهو والد رءوف صد أبناءه عن الحياة رحمةً بهم، فيا لها من رحمة لا يعرفها له أبناؤه! ومتى كان الأبناء يعرفون البر للآباء؟ والقصيدة الآتية محاورة بين المعري وابن له في الغيب يتوسل إليه أن يريه الحياة وهو يذوده عنها وينصح له بالبقاء في عالم العدم:

يا أبي! طال في الظلام قعودي فمتى أنت مخرجي للوجود؟
طال شوقي إليك فاحلل قيودي
يا أبي عالَمُ الظلام مخيف ليس يقوى عليه طفل ضعيف
فَأَجْزِني من ظله المسدود
حدَّثونا عن الحياة العجاب فلهجنا بحسنها الخلَّاب
وظمئنا لحوضها المورود
حدثونا عن الدجى كيف يسطو وعن الصبح بعده كيف يعطو
وعن النحس فيهما والسعود
حدثونا عن دارها وبنيها وجهاد يُمنى[١٨] به القوم فيها
وعن الموت بعدها والخلود
أرني الجهر يا أبي والخفاء أي شيء ذاك المسمى شقاء؟
أي سر يراد بالمولود؟
ما الوجوه الحسان؟ ما النوار؟ ما الدراريُّ؟ ما الفلا؟ ما البحار؟
إن دأب الوليد حبُّ الجديد
لي جدود وليس لي أبوان ولئن شئت آن فيكم أواني
وتملَّيت قسمتي في الوجود

* * *

ولدي! إنني أبوك الرحيم أنا بالعيش يا بنيَّ عليم
لا تصدق مقالة من بعيد

[١٨] أي يبتلى.

ما حياةٌ تشقى وتسعد فيها تتعنى لكن بما يعنيها
في عظيم تبلى به أو زهيد
يحسب الحي جهده لهواه جَهلَ الحيُّ، جهده لسواه
إنما المرء آلة للجدود[١٩]
إنَّ غنم الحياة من لم يجده لم يُمتَّع به، ولم يفتقده
فاغتنم ربح شرها المفقود
شرها يا بني شر ثقيل خيرها يا بني خير قليل
أهلها يا بني أهل حقود
زعموها إلى الخلود تؤدي ما رأينا سوى فناء ولحد
فيه مُودٍ على تجاليد مُودي
قف بباب الحياة لا تدخلنْها واعتصم يا بني ما اسطعتَ منها
سوف ألقاك — فانتظر — بالوصيد

* * *

هكذا أقنع المعري الوليدا فتنحى عن الحياة بعيدا
والتقى الشيخ وابنه في اللحود

داوني

دواني يا طبيب واعرف دوائي لست أبغي الشفاء كلَّ الشفاء
داوني واقتصد، ففي البرء لو كا ن سقامي، وفي السقام دوائي
إن دائي كالسهم أُنشِبَ في القلـ ـب وكالسم قرَّ في الأحشاء
لبثه موجع وأوجع منه نزعه، والهلاك في الإبطاء
داوني أيها الطبيب، أما دا ويت مثلي من مثل هذا البلاء؟

[١٩] الحظوظ، والمعنى أن الإنسان مسخر في الحياة وهو يحسب أنه خُلق لنفسه، وأن الحياة نعمة تعنيه هو، وما نصيبه منها إلا أقل من نصيب الأقدار التي تسخره لغاياتها.